محمود الريماوي

الجرح الشمالي

بعد وجبة الصباح ، شربنا شايا رائعا ، سائغا كما تحب يا احمد. لكنه توقف عند الكوب الاول ، وانسل من بيننا ، نحن المساقين ، ليقتعد هناك تحت العجوزة ، تحت الشجرة الهرمة ، قرب جذورها الضخمة الظاهرة ومعه سلاحه مثل التلميذ معه كتابه ، او مثل الاب يأخذ ابنه عن الناس ، ويقول له في الخلوة كلاما . كان بادي التعب لا يزال ، تعب الحمية والاهبة لا الاعياء . جلس هناك يلتقط الانفاس ويسترجع اطيافا واشواقا غلابة ، وكنا نراعي جانبه ، بعد ان اسعدنا برجوعه . انه في ذهن رائق شفاف يليق بشبابه الغض ، وبه روح مضطرم يجيش هادئا في دخيلته . وكان هواء الصباح النظيف ، يشق فراغ الاغصان ويمر على وجهه ، لعله يذب احلاما تنوس وتتشال صامتة دقيقة في كيانه (هل كانت وجبة الصباح صعبة ؟ اقول ، بل هذه الحياة هي الصعبة) . ثبت سلاحه بالارض وجعله مستقيما ، كما يدرب الاب ابنه على الوقوف الثابت ويقيس قامته . واخذ ينظر ويديم النظر في المدى امامه . اي افق ؟ انت لا تعرف . ثم اخذ يقربه اليه، الى انفه (هل تفعل شرا ؟ لم افعل) كان يدفيه ويقصيه بجذب متواتر ، حتى احتفظ به على مسافة اقصر من طول ساعده ، وشدد قبضته عليه كما على يد الصديق في المحنة ، وكاد ينطق فالتفت الينا، ورأى بعضنا يبصره فتدارك ، ونهض الينا بابتسامة ، غامضة مختبئة.

ـ انها ساعة الصباح الاولى .
ـ مـا بها ؟
بابتسامة قصيرة جذلى :
ـ احبها . هل هناك مانع ؟
انتظر برهة قبل ان يجلس معنا ، ثم جلس .
ـ المهم تكون استرحت ، لم تأخذ على التدريب بعد .
ـ وهل هي اول مرة ، انت تقول ؟.
ـ لا اقول ، ولكنك انقطعت .
اطبقت غمامة على قسماته ، وذهب في شتات .
ـ وهل تحاكمني ؟
ـ نتحدث عن التدريب . لا عن محاكمات .
ـ ما به التدريب ؟
ـ فعلا ما به ؟ ماذا تقول .. اليس مثيرا ساعة الصباح الاولى ؟
ـ بلى . انك تبدأ نهارك بداية صحيحة .
ـ تبدأ من اول السطر . احمد قل بضميرك ، هل هناك مشكلة؟.
ـ لا ، ابدا .. ليست هناك مشكلة .
ـ ما الامر اذن ؟ .
ـ لا شيء حقا ، لا شيء . لكن ، كما لو ان له رائحة .
ـ رائحـه ؟
ـ في الحقيقة اني اراه مختلفا .
ـ هذا السلاح ؟.
ـ نعم . آراه زهرة برائحة نفاذة غريبة ، تقمرني . اسميهـا زهرة الآر. بي.جي.
ـ اهلين . سنتان ، زمان .
ـ صدقني . رائحة قاسية وحبيبة يا رفيق .
ـ كنا نعرف اننا لم نفقدك .
ـ والله زمان . لكنكم نقصتم ، ماذا اقول ؟.
ـ تقصد ازددنا ؟.
ـ آه حقا ، يا لضعف الملاحظة . لم اعرفهم بعد .
ـ هم يعرفونك .
ـ ربما لم يفعل احد مثلي .
ـ بعضهم ، وبعضهم سيرجعون .
ـ لـكن ..
ـ جميعهم يرجعون ونلاقيهم . الطريق واحدة لا تخطىء ، هـل تفهمني ؟
ـ لا اعرف . هل من زيارة قريبة ؟
ـ هذا سبب وجودنا . ماذا نفعل هنا ؟.
ـ انني حاضر ومشتاق .
ـ لسوف تفيدنا الان ، اكثر . هلا نهضت ؟.

٢ ـ

في مساء اليوم التالي كان احمد يقف عند مدخل خيمة ، يشهد شجرة في الغروب . الشعاع الذي يتكسر على الاغصان . والحال ، انه لم يكن وحده منفردا . كانوا يلتقون للحظات ، يسألون سؤالا : مـا معنى هذه الكلمة بالعبرية ، او هل الافضل ان اكون جائعا ؟ او يسدي احدهم نصحا ميدانيا : كن سريعا لماحا دون ان تنسى انها معركة طويلة . اطرد وهم القصيرة الحاسمة ، لان ذلك في مصلحتهم في جميع الظروف . ولا تتوقع الخطأ منه ابدا . لانه دائما في ظرف افضل . لكن الشباب كانوا لا يلبثون ان يتفرقوا . بعضهم يرجع الى خارطة ، او يخرج لاداء رياضة عنيفة . والبعض ينام ، ذلـك النـوم المستحيل ، حيث الحلم هو قوام النوام : حلم وذكرى وخيال انيس يستغرق الاعصاب والاصابع . يستثير الدم ، يخفـق فـي الصدر وعلى الاهداب ، على الجلد وعلى بشرة الارض القريبة ، التي تظل تتنفس دون ان تنطق .

كان احمد يعرف ان هذه الشمس لا تغرب الا لكي تبزغ بعد وقت. وكان يعرف ان حياة اخرى سوف تضطرب تحت جلد الليل السميك ، وانه سيبصر منها نفسه البعيدة وقد اقتربت ، نفسه المعلقة وقد هبطت ، ولسوف يلمس المعنى الضال ، الذي يذوب في اشعة الشمس ، ويحوم غامضا في الظل . وحين استدار الى الداخل بحركة عصبية متوفزة ، كانت قد بلغته في النهاية تلك الرتابة الكامنة في المشهد . ان ثمة ابدية لا تحفل بهذه الالوان الخادعة ، وهذه الايحاءات الرثة ، فالوقت يتعاقب ، والحياة لا تتوقف ، ولا تعطي اية مكافأة . هكذا بدا احمد عصبيا . وقد اخذ يصغي لاغنية صاخبة من الترانزستور ، حتى يدفع عنه لوعة مباغتة اشرأبت في روحه ، فاغلق الصوت ، رجاء صمت يسمع فيه نبض روحه المغلول . انها ذات اللوعة دائما ، في مثل هذا الموقف دائما . في الصفر كان منظر الحلوى التي يحبها يقترن بالحزن ، يضع في فمه حذاء جديدا فيصاب بتعاسة حتى الخجل ، يخرج الى العيد باكرا ، خوفا منه لا شوقا اليه ، ويقضي كل وقته في تعب متصل لكي ينسى . والان رغم بعد الشقة ، ورغم الرجولة ، ها هي الحانة تتكرر . يسمع صوتا ولا ينتبه، تدخل ريح فلا يمنعها ، يحب رفاقه ولا ينهض اليهم . آه ايها الوطن، لم تكن مرة واحدة ومع ذلك اراك تتكرر ، ويستغربون . لم تبق غير ساعات ، سيان ، لم تبق غير حياة واحدة ، اي موت واحد . سيان. الوطن والسجن والمنفى ، واحد .

هل تأتي يا احمد ؟ اتبعك . هل تتأخر ؟. لا اتأخر .

في هذا اليوم السادس من حزيران . كان الجند الاعداء يقتربون من بيتنا ، من هذه الخيمة ، في القدس . كانوا يضغطون على يفاعتي بموت فجائي حاد ، لا شيء بعده . وقد ذهلت ، وان رغبه في حياة اخرى ، في حياة اولى لم تبدأ . قد اندلعت في روحي . رأيتها في تلك اللحظات الرهيفة مفتوحة مفعمة بالاحتمالات . بالرغم من انه لم يكن هناك اختيار بالمعنى الدقيق . امام ذلك الموت المجاني الانطفائي . وفي عمان تبدى لي الامر على صورة كابوس ، ان اهانة قد لحقت برجولتي المبكرة ، مع اني لم افعل ما هو مهين . هرولت من الجبال المقدسة الى الاغوار التاريخية الى جبال صحراوية ، بشفاعه أن اهلهم. ولا ريب ان ذلك كان قاسيا ، وان الثمن كان باهظا . وحين بدأت افهم في شارع المهاجرين ، في زحمة بشر ملتاعين ، يدفعون عنهم مصيرا اخرق ، وينكسون في غرف المدارس اخلاطا اخلاطا دون موت جميل دون حياة قليلة . وقد نقلوا جميعا بحبل مؤقت ، خسر ورجراج ، عرفت اني في الكابوس ، وانه قديم العهد . ولم افرد أن ادخل بيتي المحترق ، ولكني فعلت مع الجموع . تممدت في الشريعه كثيرا ، في غطاس الشعب ، لكي يمسكوني قبل ان يجف ثيابي ، ولم يفعلوا غير توبيخ الطفل . وفي المرة الثانية عبرت مخاضة ، محاذرا الماء الاخضر الغريق ، لكي اصل الى مشارف اريحا ، الى شجر غفير. لكنهم صادفوني في اول شارع . كثيرون غيري نجحوا في الدخول ومن المرة الاولى ، دون مشقة تذكر . احتفظوا بي يوميين ، ثم اطلقوني وراء النهر ، وهم يقولون : هذه ليست طريقة صحيحة ، فوافقتهم الرأي .

الموقف السياسي يقتضي اسلوبا عسكريا مناسبا ، كان تشغل فواتهم اطول فترة ممكنة عبر انتشارات مديدة ، حتى لو كلف الامر تجنب الاشتباكات . لاننا نخوض معركة طويلة على امتداد الارض ، ولا نخوض مبارزة قصيرة في رقعة ضيقة . (هل تقصد ما افهمه ؟ نعم ، افهم ماذا تقصد ، شجر لا يرحل) . ما السبب ايها الصليب الاحمر ؟ لا سبب ، سوى ان الوقت لم يحن . كانت منظمة الصليب الاحمر قد اعلنت ان باب العودة مفتوح للنازحين . خرجت من طابور بائع الفلافل ، والقروش في قبضتي ، دفعتها لاول سائق تكسي ، وفي مدرسة الفرير وجدت الباب مغلقا . طردوك حتى يعيدوك ؟ لا لكي يطردوك . وحسب ، لماذا كثرة التاويل ؟

كان يجب ان لا نتركنا . انا قادم اليكم .

وكان يجب ان انتظر فانون لم الشمل . لكي ادرك اني بلا عائلة ، بدون من يشملني . اشملني برجائك . هذا اليأس قديم عريق في عمر الوطن . من يعترض ؟ يفتلك اليأس ويتواطأ عليك الامل ، فلا تعرف ايهما الذي معك او ضدك . غير ان هذه ليست المسألة . انني لست نائما . وليس في الليل قمر ، وانا لست قيس ، وهذا الليل ليس اعمى ، ولم تخرج انت ولا انا الماء ، والقبور تحركت قبلنا، والزغاريد الاولى هي من يؤنسنا . تو لم تسمعها هل كنت تقدر على الصمت، فاخفض صوتك ، وارفع رأسك ، ولا نرجع الى الوراء حتى لا تسقط ، واذا ذهبت الى امام فاعبر ، تعرف في اي ارض تموت ، حتى تمنع عنك لعنه الفناء ، ولا ينقطع من بعدك خيطك .

من الذي انقطع ؟ كانت الشام ابعد من الصين . كانت اخلاقي تنزل كل يوم ، وانا انزل الجبل الى العاصمة التائهة العاصية. ولكني كنت استعيد كل اخلاقي وادبي امام اول صاحب مطعم . كنت اطوف في ذات الشوارع مثل بغل ، حتى تصدق اقدامي اني امشي ، ولكي لا ابتعد . هذا السلاح النائم هو نفس الحلم النائم الى جواري وفي سريرتي في تلك الايام الكلبيه . نفس صورته وطيفه ، فماذا تبدل . ان احدا لا يغير اسمه ولا يستبدل جلده ، وليس في ذلك ايها الخرافيون ، معجزة . هكذا يفعل البشر جميعا ، هكذا تتكلم الاوطان، هكذا تفعل الاوطان بالبشر جميعا . اية معجزة . هذا السلاح حمل ابي مثله ، وجدي من قبل . وابوك انت وجدك . لماذا تنسى ، ولماذا تريد ان تقتطع النهر ؟ انا « اسير النهر » وانت . وعندما حملته اول مرة، كان يجب ان افعل ، فقد نضجت وبلغت الرجولة . ربما لو فعلت ذلك من قبل لكنت اخطات . جمعت صورهم على الحائط ، ثم ترجلوا عن الحائط واندفعنا معا . كنت قادرا وفي تمام الشوق فلماذا اتأخر ؟ كان الشوق يفرع ويرتل في بدني ، وكان يجب ان ابارك رجولتي . لا تصدق ان الحجاج يفدون اليها لانها مقدسة فقط ، بل لكونها جميلة حتى العبادة . تستدرجك على الابواب لتأسرك عند اول مرتقى . هل سنتكلم عن القدس الان ؟.

بقيت ساعتان ، لكنها حياة واحدة وموت واحد . عندما وضعته ـ انت الذي يلتفت الى الوراء . لم يبق أحد لم يضع قدمه، جميعهم يرجعون ، فهل تريد ان تمنعهم ، هل يريد احد ان يمنعني ويمنعك عما ننوي ان نفعل . عجائز رجعت بعد اسبوع . صديق ارمني رجع الى القدس قبلي وتم بفشل مثلي . بعضهم رجعوا مع الصليب الاحمر اياه . وبعضهم دفع رشوات للجنود . رجعوا بقانون لم الشمل. بعضهم رجع من كندا باذن دخول وهبط في مطار العدو ، ولكن على ارض هي له وليست للعدو . رجعوا ايضا بتصاريح : انت زعلان ، ما عليك ، اعرف موطىء قدميك بعد قليل ، ولا تقل ان الطقس بارد .

بعد عشرين شهرا ، بعد كم زيارة ؟ انت تعرف . بعد ايام سوداء ، بعد موت عميم ، ليس سعيدا بالتأكيد . تطلق النار وسط اهلك ، فهل تفويهم . هكذا جربت نفسي بدون هذا السلاح ، مثل الاعزب بعد زواج . جربت الحياة على الهوى ولم اندم . نعيش هفهافا طافيا هكذا . تعرف ان يدك فقدت كثافتها ، وتأخذ العزاء من وجوه حزينة مصلوبة حولك . ويحضرني الكابوس . ونبلل اقدامي موجة طافية رقيقة لكنها لا تأخذني ، فتقدم اليها الان .

٣ ـ

تقدم الان . يتقدم احمد ، لكي ينفذ اجراءات الدخول . ويشد بطاقة الزيارة ، البطاقة التي لا تبطل ولا تبلى . توزعوا يا شباب . هنا وهناك ، لا اسراف في الذخيرة ، فنحن لا نحتفل بابن المختار ابو الشوارب .

اين انت يا احمد ؟ في الربع الساعة الاول ، اخوض حربنا

في جميع اللغات ، بجسد واحد ، عبر طريق متعرجة ، تعطيك الدفء والشوك ، وهي خرساء ، اواقمها بجميع اللغات وهي خرساء . سوف نقطع مسافة طويلة قبل ان نبلغ او نفعل شيئا ، من اول فلسطين الى اخر دخول .

سوف اكمل لك ، نحن في صدد واحد . كنت اعرف انها لن تحملني ، ومع ذلك استخدمت الورقة العبرية . لماذا تهرول ، هل اختلفت مع عقلك ؟ وضعت الورقة في جيبي ودخلت الجسر الخشبي مع الجموع . اول مرة ؟ سألني الضابط . انه لا يعرف . اذن ليكن : اول مرة . بدأت بزهر الليمون العاصف ، بأريحا تستحم في الشمس والتاريخ . وقلت : دخلت . هذا هو الارب . قلت رجعت . هذا هو الحق . لان الواحد يسافر ويرجع ، يخرج من بيته ويرجع اليه فهو سكناه . ذات يوم رأيت عمتي تحضر الينا الى بيت عمي ، بنقود وجبن وزيتون وحلويات . خالتي تهيء الطعام في المطبخ وعمتي تقول لها دعي عنك فاحمد مثل أبني . عمي يتحدث عن غلاء الاسعار في عمان، وخالتي تجمع ثيابي ودموعها في حقيبة واحدة . ما بك يا احمد ؟ لا شيء ، سامحكم المولى . طعامك ينتهيأ بعد قليل ، لعلك نذكرنا . اذن ارجع في الموعد . برد الطعام ولم ارجع . ذهبت اطارد الارض ، ادفها بقدمي ولهفتي . انا هنا ، ولا تسمعني الخرساء . وبقيه القصة هم يعرفونها، هيا نبدأ .

٤ ـ

تعتبر مسنوطنة المنارة في الجليل الاعلى ، من اهم التحصينات المتعددة من الناحية الاستراتيجية ، لاشرافها على القطاع الاوسط من جنوب لبنان ، ولحساسية موقعها العسكري ومواءمته ثانيا ، حيث يعتمد العدو عليها في النجدات السريعة للمستعمرات الاخرى في نفس المنطقة . وثالثا لارتفاع الكثافة العربية فيها .

هذه المستعمرة هي التي قام الثوار الفلسطينيون باقتحامها،حيث زرعوا عبوات ناسفة في احد المستودعات التابعة للتجهيزات العسكرية ، وقد انفجرت العبوات في الوقت المحدد : الرابعة صباحا. وعلى الاثر دفع العدو بقوات كبيرة ، بينما انتشر الثوار في المنطقة في مواقع عديدة حيث يخوضون اشتباكات متفرقة متتالية مع قوات العدو وفق الخطة الموضوعة ، والمبادرات القتالية ..

ـ ٥ ـ

هذا غروب اليوم الرابع . امامي ارض منبسطة خضراء وشمئة ، خلفها سلسلة جبال متداخلة تتلوها غابة تمتد الى اخر المدى المشهود، والى جواري صخرة مفردة اسميها صخرة المتكأ . تغيب الشمس الان، بحركة انزلاقية ، ويسيل الليل على بدني ، ويمتزج بشهواتي . تتراءى الكائنات الجامدة حولي ، باشكال ذات جاذبية طاغية . واكون وحيدا مع هذه الخرساء . اقول يربطنا جرح واحد ، دم واحد بلون هذا الغسق ، ويضغط علي الجرح ، تناديني حفرة قريبة ، لها شكل حوض او مهد ، كثيفة نباتاتها ، اسود كامد جوفها . ادفع عني هذا النداء ، واصغي .

ـ تأخرت .
ـ لم تبق الا خطوات اخيرة .
ـ هل انت جريح ؟
ـ لا ، انني خفيف في الرياح الطلقة، بدون صعوبة .
ـ حاذر النهار .
ـ المكان مأهول هنا في مصارع العشاق . ولم اكن يوما الا وحيدا .
ـ اين انت ؟
ـ انا ؟ في الجرح الشمالي .
ـ هل ترجع الينا ؟
ـ رجعت اليهم .
ـ ماذا تقصد .
ـ اني وحيد مثلها ، نليق ببعضنا .
ـ هذا خطأ .
ـ الدم لا يخطيء ، لا ينقطع اذا احببت .
ـ هل ترجع الينا ؟.
ـ انت تعرف ..
ـ ماذا تقصد ؟
ـ اقصد ما تفهمه .
ـ اين بقيتكم ؟
ـ في المصير قرب الاشجار . وهناك يبحثون عنك .
ـ كانت المعارك صعبة ؟
ـ لم تكن . قابلنا أشباحا من رصاص ، ومضينا ، كانت حياة صعبة بطيئة ضيقة باطلة ، يليق بها الزهو والنسيان .
ـ والنتيجة ؟
ـ انتشار مديد في اربعة انحاء الجرح . اقامة ابدية ،هذا يكفي .

اخذ الصوت يتساقط ويضمحل في فراغ الليل . واحمد يتوغل في الداخل يستحثه جرح في اعلى الساق ، ويضم سلاحه الى صدره، كما يضم الحاج زوادته . تتجدد خطاه وتتابع ، بايقاع الانفاس المتقطعة الحرى ، مثل طفل يختال بخطاه الاولى ، مثل عجوز يحتفل بالقدرة الباقية على المشي . ومع اول شحوب النهار ، كان يطوف بين سلسلة جبال متداخلة متباعدة تبدو على هيئة بشر اسطوريين ، متصلبين مضطجعين : كان وحيدا مثل نجمة الصباح . وفي نهاية المشهد ، يتحرك جيش من الشجر ويمدح في عنف سري متعال اخضر . واحمد يطارد شهوة كثيفة عاصفة ، تأخذه اليها وتلفحه، ويستجيب ..

وهذا يكفي .

الكويت

صدر حديثا

بيروت ... الازقة والمطر

قصص

بقلم

رفيف فتوح

منشورات زهير بطبكي